

رقم الدرس ٧

السبت ٢٦-١٢-١٤٤٧ هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الإمام المجدد -رحمه الله تعالى-: [باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب]
قال -رحمه الله-: [وقول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}].

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستق بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد ترجم الإمام المجدد -رحمه الله- بهذه الترجمة التي قصد منها بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.

وقد منا بعض المعاني المتعلقة بهذه الترجمة، ولا شك أن العناية ببيان فضل التوحيد من شأنه أن يعين الموفق على العمل بهذا الأمر العظيم الذي أوجبه الله وفرضه على عباده، فيحرص كل الحرص على توحيد الله -عز وجل- وإفراده بالعبادة؛ طمعاً في رحمته، وخوفاً من عذابه، كما هو شأن أهل الإيمان والسعداء الذين ذكرهم الله في كتابه وأثنى عليهم.

[باب فضل التوحيد]: فإذا علم فضل التوحيد لزمه، وإذا علم بفضله عمل به، وحرص على الدعوة إليه، وتحذير العباد من ضده.

فلا شك أنه إذا وفق العبد إلى معرفة هذا الأمر فإنه يُعينه على كثير من الخير.

وباب الفضائل باب متعلق بالنصوص، فلا يمكننا أن نقول: (إن هذا العمل له فضل) إلا إذا دل الدليل على فضله، سواء كان دليلاً من الكتاب، أو من السنة، أو من النظر الصحيح المستنبط من أدلة الكتاب والسنة، فالفضائل لا تُعطى هكذا، ولا تُذكر هكذا، وإنما تكون مبنية على نصوص شرعية تدل عليها.

والتوحيد جاءت النصوص المتظافرة في كتاب الله -عز وجل- وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- على فضله، وإذا نُظر إلى باب الفضائل فإنك لن تجد شيئاً أفضل من توحيد الله -عز وجل-، ولن

تَجَدَّ أَمْرًا رَتَّبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْخَيْرَ فِي الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَعْظَمَ مِنْ تَوْحِيدِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَأَدَاءَ حَقِّهِ إِلَيْهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - .

فهذا الأمر هو أعظم الأمور، وإذا ذُكِرت الفضائل في نصوص الكتاب والسنة، فأوَّلُ فضيلة هي فضيلة التوحيد، وكما أنَّ فضيلة التوحيد هي أوَّلُ فضيلة، فالضدُّ بالضدِّ، فضدُّ الشِّرك، فهو أسوأ الأمور وأعظمها بلاءً في الدِّين والدُّنيا والآخرة.

يقول -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ] أي في هذا الموضع سأذكر لك جملةً من آيات الكتاب وأحاديث النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على فضل توحيد الله وإفراده بالعبادة، وما جعلَ فيه من غفران الذنوب.

[وقول الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}]: هذه الآية من سورة الأنعام، وهي حجة، بين الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أنه أتى إبراهيم الخليل الحجة على قومه، فحاجَّوه وجادلوه في التوحيد، وكذلك حاجَّهم في بيان خطأ ما هم عليه من الشِّرك وعبادة الكواكب وعبادة غير الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}، {أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ}: الهداية التامة الكاملة إلى توحيدهِ وإفراده بالعبادة، أتُحَاجُّوني أنني وُحِّدْتُ الله؟ وتجادلوني أنني أفردتُ الله بالعبادة؟ {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}، اللهم اجعلنا منهم.

بين -عليه السلام- أنه لا يخافُ ما أشركوا به مع الله -عَزَّ وَجَلَّ-: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا}، فبين أنه لا يخافُ ما أشركوا به مع الله -عَزَّ وَجَلَّ- من عبادة الله إلا إن يشاء الله، {وَسِعَ رَيْيَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}.

بين أنه لا يخافُ من الكواكب التي يعبدونها من دون الله، إلا أن يشاء الله، وهذا من أكمل ما يكون من التوحيد، وقد يتلى الله المؤمن الموحِّد إذا ناظر المشرك، قد يتلى المؤمنين بأشياء تكون للمشركين استدراجًا، ولذلك السَّحَرَةُ والمشعوذون والكهنة وعبداء الشياطين يصنعون أمورًا جعلها الله لهم استدراجًا، ويخوفون بها غيرهم، ويزعمون أنها تدلُّ على أنهم على حقٍّ، وأنهم على هدى، فقد يستدرج الله أهل الباطل بشيء يجعله لهم، وهذا الشيء يكون دليلًا على قوَّة إيمان أهل التوحيد، فتجد المؤمن الموحِّد مهما رأى من أهل الشِّرك وعبداء الأوثان وعبداء الشياطين من الأمور الغريبة لا يتزعزعُ إيمانه،

ولا يضعفُ يقينه، ولذلك في حديث الدجال أنه لما زعم أنه الإله ردَّ عليه المؤمنُ الموحِّدُ، وسأل من معه: ((هل أريكم أني أقتله ثم أحياه؟))؛ لأنَّ الله جعل له ذلك، لكن جعله استدراجاً له وامتحاناً للمؤمنين، ولذلك فتنَّته فتنةً، واستعاذ منها النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأمر أُمَّتَهُ أن يستعينوا منها.

فقتله ثم أحياه بأمر الله؛ لأنَّ الله يجعلُ الخلقَ لمن شاء كما في عيسى بن مريم: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}، إذا أذن الله. فربما يأذن الله لهؤلاء استدراجاً، وليس حقيقةً، فتجد المخدولين يقولون: (انظروا إلى هذا الوليِّ فعل، انظروا إلى هذا المقبور فعل)، هذا استدراجٌ من الله، لكنَّ أهلَ التوحيد لا يزدادون إلا إيماناً. فلما أقامه بين يديه حيًّا قال: ((آمنتُ أنه ربي، قال: ازددتُ أنك المسيح الدجالُ))، ازددتُ يقيناً، توحيد، توحيد.

التَّوْحِيدُ إذا تغلغل في القلب -جعلنا الله وإياكم- لا يزعزعه شيءٌ، ليس هناك أتفه من الباطل، ولا أقوى من الحق، وليس هناك حقٌّ أعظم من توحيد الله -جلَّ جلالُهُ-. هذه الحجَّةُ أعطاه الله -عَزَّ وَجَلَّ- لإبراهيم -عليه السَّلام-، ولذلك قال بعد هذه الآية: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}، فالله -سُبْحَانَهُ وَوَعَالَى- جعل هذه الحجَّةَ لهذا الإمام من أئمة التوحيد خليل الله إبراهيم -عليه الصَّلاة والسَّلام- وعلى نبيِّنا وعلى أنبياء الله الصَّلاة والسَّلام-، آتاه الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فقال الله -عَزَّ وَجَلَّ- في جواب سؤال إبراهيم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}.

{الَّذِينَ آمَنُوا}: أهل التوحيد، {وَلَمْ يَلْبِسُوا}: لم يخلطوا، اللبسُ في لغة العرب: دخول الشيء في الشيء، وحينئذٍ إذا اختلط الأمران التبس حالهما، ولذلك قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الإحرام: ((لا تَلْبَسُوا الْقُمُصَ))؛ لأنَّ الأصلَ في القميص الدخول فيه، ولذلك قالوا: من وضع القباء على كتفه، ولم يدخل يده، لم تلزمه الفدية؛ لأنه لم يلبسه، فاللبس هو الدخول في الشيء، ومن هنا، الإزار المفصل الآن الموضوع هو لبس؛ لأنك تدخل فيه.

هم يقولون: (مخيط)، هذا ليس بعبرة، إنما قالوا: (المخيط)؛ لأنَّ الغالب أنَّ الذي يُدخل فيه يكون مخيطاً مفصلاً، لكنَّ الأصل هو اللبس والدخول.

فإذا سألك عن الدليل، تقول: الدليل قول النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((لَا تَلْبَسُوا))، اللبس في لغة العرب: الدخول في الشيء.

ومن هنا، قال: {وَلَمْ يَلْبَسُوا}: لم يخلطوا، {إِيمَانَهُمْ}: توحيدهم، لما آمنوا وشهدوا شهادة التوحيد آمنوا بها، وصدقوا بها وأيقنوا بها، وعلموا بما دلت عليه، وأخلصوا لله - عَزَّ وَجَلَّ -، فأتوا بها على وجهها على أتم لهم الأمن.

{وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} الظلم: هو الشرك، وهو أظلم الظلم، ولذلك لما نزلت هذه الآية الكريمة؛ لأنَّ السورة مكية، سورة الأنعام مكية، فنزلت فشق ذلك على أصحاب رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وقالوا لرسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ)) وأَيْنَا لَا يَظْلِمُ؟ كُلُّنَا نَظْلِمُ، وكُلُّنَا نَقْعُ فِي الظلم، فبينَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّ الظلمَ في هذه الآية هو الشرك، وقال: ((أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لابنه وَهُوَ يَعِظُهُ: يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)).

فقوله: {وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك؛ فدلَّ على أَنَّ الإيمانَ الخالص لا شرك معه، فقال: (لا إله إلا الله) يقولها ويعمل بها ويمقتضاها، ويقوم بحققها وحقوقها، فعندها تكون خالصة، ويكون الإيمان خالصًا، فإذا كان مؤمنًا موحدًا لم يلبس إيمانه بظلم، فإنَّ الله وعده، ووعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة بقوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}.

لما ذكر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - آية لقمان في تفسير آية الأنعام؛ دلَّ على أَنَّ القرآنَ يُفسَّرُ بعضه بعضًا.

ولذلك قال تعالى: {كِتَابًا مُتَشَابِهًا} أي يشبه بعضه بعضًا، ويُفسَّرُ بعضه بعضًا، وهذا أعلى درجات التفسير، (تفسير القرآن بالقرآن)، ولشرف القرآن وعظم أمره تولى الله - عَزَّ وَجَلَّ - بيان بعض آياته، ثم لما تولى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هذا التفسير بهذه الطريقة علَّم العلماء أَنَّ القرآنَ ينبغي أن يُفسَّرَ بالقرآن، وأنَّ من آيات القرآن ما يُفسَّرُ به القرآن، فهذا من (تفسير القرآن بالقرآن)، ودلَّت عليه السُّنَّةُ؛ لأنَّ النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قام به.

{أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}: ما قال: (هم الآمنون)، {أُولَئِكَ}: دليل على علو الدرجة والمنزلة، أهل التوحيد {أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}، ما قال: (أولئك آمنون)، قال: {أُولَئِكَ هُمُ} كأنه أصبح ملكًا لهم، {أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}، وإذا أمَّن الله فلا خوف مع أمان الله - عَزَّ وَجَلَّ - أبدًا.

{أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}؛ لأنَّ أعظم ما يكون من نعم الله على العبد في الدِّين والدُّنيا والآخرة هو الأمن، وإذا كان الإنسان غير آمنٍ فلن يهنأ عيشه لا في الدنيا ولا في الآخرة، إذا سلب الأمن من الله فإنه لا يهنأ له عيشٌ لا في دينه ولا في دنياه ولا في آخرته، ولذلك لما سلب المشركون الأمن تاهوا وحاروا وضلُّوا حتى أصبحوا أسوأ من الأنعام: {إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} لماذا؟ لأنهم أشركوا بالله. وصوَّرَ الله -عزَّ وجلَّ- حالة التَّيه والضَّياع للمشرك الذي سلب هذا الأمن، ولم يوحِّد الله، صوَّره بقوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ}، لن تجد حيرةً أعظم من حيرة الشرك، فهو في قلق، وفي همٍّ، وفي غمٍّ، وفي سوءٍ، كلُّ ما تتصوَّر من السُّوء مقرونٌ بالشَّرك، ليس هذا مبالغةً، ولكنها الحقيقة، والله لو رأيتَ المشركَ جامعاً لأموال الدنيا كلِّها، يفعلُ فيها ما يشاء، فإنه في هذا الهمِّ والغمِّ والقلق، ولا أمنٍ له في ماله، يقولُ الله عن أموال المشركين وما حازوا: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ}، الله أكبر! إذا اعتدى العبدُ حدودَ الله، وتمرَّدَ على الله، وألحد وكفر بالله، وأشرك بالله ما لم ينزِّل به سلطاناً، فإنها الخسارة التي ليست بعدها خسارة، ولذلك: {كَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}، اقرأ القرآن وتدبَّره، اقرأ القرآن، وقف، إذا ذكر الله أحوال السُّعداء فتأملها، وإذا ذكر الله أحوال الأشقياء تأملها؛ حتى تكون من الأولين، وتبتعد عن الآخرين، وتُسَلِّمَ لربِّ العالمين.

{أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}؛ تجد الموحِّد آمناً في فكره، ما عنده قلقٌ؛ لأنَّ هذا الذي يعبدُ الوثنَ أو يعبدُ القبرَ أو يعبدُ الوليَّ أو يعبدُ من يعبدُ، مهما سؤل له الشَّيطانُ، فإنَّ هناك دلائل في داخل قلبه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ}، ولذلك كلُّ الذي عنده تزيينٌ، لكنَّ الحقيقةَ والفطرة جحيماً يتلظى في قلبه، حيرةٌ ليست بالهينة، والله إنَّك بالتوحيد توحيد الله تعيشُ نعمةً لا يعلمها إلا الله -جلَّ جلاله-، تسمي وتصبحُ وأنت تعبدُ ربَّك المستحقَّ للعبادة، وتحفظُ حقَّ ربِّك الذي أمرك، لك الأمن، وعدٌ من الله، أمنٌ في الدنيا، وأمنٌ عند الموت، لا يقلقُ لا يتزعزعُ يعلمُ أين يذهبُ، بل إنه يشقائقُ إلى ربِّه. المؤمنُ الموحِّدُ كلما كُملَ توحيدُه ازداد شوقه إلى ربِّه، ويكونُ ثباته في أشدِّ المواطن وأعظمها قلقاً لغيره، التَّوحيدُ ما يخذلُ صاحبه، ولذلك قال: {أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ}، أمنٌ الدنيا، وأمنٌ الدِّين.

أمنٌ الدنيا، كلما جاءتْه الآن النعمةُ قال: (الحمدُ لله؛ هي من الله)، تنكسرُ سيارته، تخسرُ تجارتَه قال: (إنا لله)، انظرُ كيف التوحيد، أول شيءٍ: أنا مملوكٌ لله (إنا لله)، أين تجد هذا عند غير الموحِّد؟ ما تجده إلا عند الموحِّد، (إنا لله وإنا إليه راجعون)، التوحيدُ عند كلِّ نعمةٍ، والتوحيدُ عند كلِّ نقمةٍ، فعند

النِّعْمَة شكرًا، قال: **{ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي }**، سليمان - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لما حُشِرَ له الجنُّ تحت الأرض، وفوق الأرض من جنوده، وبين السماء والأرض الطَّيْرُ: **{ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ }**، جميع أقسام الملك جعلها الله له، فلما قالت نملة: **{ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }**، ماذا قال؟ هل قال: (نحْنُ، ونَحْنُ)؟ أبدأ، أول شيء التوحيد، قال: **{ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي }**، الله أكبر! ولذلك أكمل الخلق توحيدًا وأدبًا مع الله هم الأنبياء، وكل قصة من القرآن تثبت لك هذا.

إن جاءت السَّرَّاء للموَحِّد زادت سرورًا بالتوحيد، وإن جاءت الضَّرَّاء فإِنهَا لا تؤذيه شيئًا، هو يقول: (إنا لله، هو الذي أعطاني، إنَّ الله ما أعطى، وله ما أخذ)، معانٍ سامية، لكنها تُرْفَعُ إلى ذي العِزَّة والجلال، يقولها المؤمن وهو يستشعر أنَّ الله يسمعه ويراه، وأنَّ الله يحبُّ من وَحَّدَ في الضَّرَّاء، فتجد في الشَّدَّة توحيدًا، وفي الرِّخاء توحيدًا، فإذا بالأمن والطَّمَأْنِينَة، الرَّجُلُ يَفْقِدُ أبنَاءه، يُتَلَى في جسده، يَفْقِدُ عينه، يَفْقِدُ رِجْلَه، يَفْقِدُ يَدَه، فتقول: (كيف حالك؟)، يقول: (الحمد لله)، أين تجد هذا؟ ولا يقولها عبثًا، إذا كُئِلَ التوحيد يقولها بملء قلبه وفمه، ومن رضي عن الله أرضاه، قال: ((ابنوا لعبدي بيتًا في الْجَنَّةِ سُمُوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ))، موَحِّدٌ، التوحيد معه الأمنُ الكاملُ في السَّرَّاء وفي الضَّرَّاء، وفي الدُّنْيَا وعند فراقها، كلُّ شيءٍ ينسبُه الموحِّدُ لله، وإذا وجدته بهذه الصفة كامل الإيمان فقد كُئِلَ أمره.

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ }، العكس: الذين خلطوا الإيمانَ بالظُّلْمِ، الظُّلْمُ هو الشِّرْكُ، فمن -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- أشرك مع الله غيره، فلا آمنَ له، يُسَلِّبُ الأمنُ كاملاً، ومن كان الشِّرْكُ شِرْكًا أصغرَ، فينقصُ الأمنُ بحسبه: **{ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا }**، فالله وعد المؤمنين، وعد الموحِّدين بهذه النِّعْمَة العظيمة التي هي فضلٌ منه سبحانه.

تأمل -رَحِمَكَ اللَّهُ- هذا الإمامَ المَجْدِدَ، انظر كيف الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أثار بصيرته، عقد هذا الباب **[باب فضل التوحيد]**، ثم جاء من كتاب الله بهذه الآية الكريمة، توفيق من الله -عَزَّ وَجَلَّ- له؛ لأنَّ الأمنَ هذا أمنُ الدِّينِ والدُّنْيَا والآخرة، تكونُ به الفضائلُ كُلُّهَا، مَنْ أَمِنَ، ولذلك الله لما ذكر أنَّ الآخرةَ بَيِّنٌ: **{ لَا يَخْزُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ } * يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ }**، في الفزع، في القلق، تتلقاهم الملائكة.

عند قبض الروح، **{ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ }**، هذا الأمنُ المَجْمُلُ في هذه الآية مُفَصَّلٌ في آياتٍ لا يعلمها إلا الله عديدة من كتاب الله، وأنت بنفسك تجد هذا الأمنَ،

فأنت تجد الأمن بدليل الكتاب وبدليل السنة الصحيحة عن رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ولذلك في شدة الحال لما يريد الإنسان أن يفارق الدنيا، ما تجد ساعة في الدنيا أشد من ساعة فراق الدنيا، اللهم هون علينا فراقها، واجعل أسعد اللحظات عندنا لحظة مصيرنا إليك، ووقفنا بين يديك. فهذه اللحظة تجد ولي الله المؤمن على حال السعداء؛ لأنه حال الأمن من الله -عز وجل-، قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في السنة: ((مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ))، ولما فسّر لأئم المؤمنين هذا الحب بين العبد وربّه وبين الموحد وخالقه ورازقه والمؤمن به قال: ((إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا احْتَضَرَ)) بيّن كما في حديث البراء في صفة نزع الروح: أنه لما تأتيه الملائكة تبشّره بما عند الله من المثوبة يحب لقاء الله، فيحب لقاء الله لقاءه، الأمن عند قبض الروح، الأمن عند فراق الدنيا.

الأمن في القبر، يقال لعبد الله، إذا قيل له: ((من ربك؟ قال: ربي الله، ما تقول في هذا الرجل؟ قال: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: ثم صالحاً، ثم يفتح له من الجنة من نعيمها وروحها، فيقول: ربي أقم الساعة))، أمن في القبر. وأمن في الحشر، لما يخرج من حشره: {تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}.
المهم: أن الأمن يصحبه دائماً؛ لأنه موحد لربه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، فيحرص المؤمن على أن يحوز هذه الفضيلة على أتم وجوها وأكملها، جعلنا الله وإياكم ذلك الرجل.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}: الهداية لهم بالتوحيد، لا هداية إلا بالتوحيد، الهداية أمرها ليس بالهين، ما أعطي عبد عطية أعظم من الهداية، جعلنا الله وإياكم من المهتدين.

والدليل على ذلك: أنك في صلاتك تنفي على الله، وتستفتحها فأول ما تسأل ربك: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، هذه الهداية أثبتها الله لأهل التوحيد والإيمان الذي لا يلبس بشرك. في قوله: {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} يدل على أنه هناك من يخلط إيمانه بالشرك؛ يدل على أن الإيمان يخلط بالشرك، {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، فيأتي يقول: (أنا أقول: لا إله إلا الله، كيف تقول لي: أنا مشرك)، وهو يصرف حق الله لغير الله، إذا لابد من أن يكون الإيمان خالصاً، والتوحيد خالصاً لا شائبة معه.

[وعن عبادة بن الصّامِت -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ)) أَخْرَجَاهُ.

الشرح:

هذا شرط، هذا الحديث اشتمل على فضيلة من فضائل التوحيد، وإفراد الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالعبادة، وهي من أعظم الفضائل، أن يكونَ العبدُ من أهل الجنة، جعلنا الله وإياكم منهم. فهذه الفضيلة -وهي دخول الجنة، والفوز بالجنة- موقوفة على التوحيد، فلا يمكن أن يدخل الجنة من كان مشركاً؛ لأنَّ الله حَرَّمَ الجنةَ على أهل الشرك.

بَيَّنَّ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هذه صيغة شرط: ((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))، وجواب الشرط وما بعد هذه الجملة وما بعدها، وجاء جواب الشرط: ((أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ))، فهذا الشرط يقوم على شهادة: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ).

الإمام المجدِّد -رَحِمَهُ اللَّهُ- عقد لمعنى شهادة: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) باباً مستقلاً، لتفسير وبيان معنى شهادة: (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)، وسنؤخِّر الكلامَ عليه إلى ذلك الباب، وهذا يدلُّ على جودة تبويبه ودقته -رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَجَزَاهُ عَنَّا وَعَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ-.

((مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)): الشَّهَادَةُ تُطْلَقُ بِمَعْنَى الْحُضُورِ، "شَهِدَ الواقعة": إذا حضرها، {وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} أي من الحاضرين، وشَهِدَ بِمَعْنَى عِلْمٍ.

فشهادة التوحيد: هي العلمُ بوحداية الله -عَزَّ وَجَلَّ-، العلمُ الذي لا يشوبه شائبة الشك ولا التردد ولا غيره، إنما هي خالصة، العلم التام الكامل.

أشهد: بمعنى أعلم علماً يقينياً لا شك فيه ولا مرية.

((أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))، ((أَنْ لَا إِلَهَ)): أي لا معبود حق ((إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ))، يشهد هذه الشَّهَادَةَ، وهي توكيد لما قبله ((وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)): إثبات ونفي كما قلنا ركنا التوحيد.

((أشهد أن لا إله إلا الله)): إثبات ونفي، ((وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ)): أيضاً توكيد، إثبات ونفي.

((وَأَنَّ مُحَمَّدًا)): أي وأشهد أن محمداً - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -، وهو رسول الله، خاتم النبيين، والمعرف لا يُعرف.

((أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ)): تقدّم معنا معنى ذلك في مقدّمة الكتاب، وقلنا: إنَّ أهل الإسلام والتوحيد في الأنبياء سلموا من الإفراط والتفريط، سلموا من الغلو والإجحاف.

فتجد الغلو أنهم غلوا في الأنبياء والرسل، فزادوهم عن مقامهم، بل وصرفوا ما لله لهم، تعالى الله، كما فعل النصراني قالوا: (إنَّ المسيح هو الله)، تعالى الله عما يقول الظالمون غُلُوًّا كبيرًا، فقالوا: (إنه الله)، وهو عبد الله ورسوله، غلوا فيه حتى زادوا وظلموا ظلمًا مبينًا، وذلك بشركهم وادعائهم أنه هو الله، وقالوا أيضًا: (إنه ثالثُ ثلاثة)، تعالى الله عما يقول الظالمون غُلُوًّا كبيرًا، هذا غُلُوٌّ، وهو صراطُ الضالين، ومنهج الضالين.

وأيضًا لما قالوا: ((ورسوله)) سلموا من التَّقْصِيرِ والإجحاف كما فعل اليهود، فأهانوا رسل الله، وقالوا فيهم ما لا يليق، ونسبوا إليهم ما لا يليق - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ -، وبَيَّنَّ الله هذا في كتابه، فهذا من الإجحاف.

وكذلك الجهمية لما سلكت هذا المسلك الوخيم في حق الله -عَزَّ وَجَلَّ- وفي حق أنبياء الله. فالمقصود: أنَّ هذا الإجحاف والانتقاص يسلم منه المؤمن الموحّد، فجاء وقال: ((عبدُ الله)) فسلم من الغلو، وقال: ((رسوله)) سلم من الإجحاف، وهذا هو المسلك: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ}، {مِثْلُكُمْ}: ((عبدُ الله))، {يُوحَى إِلَيَّ}: ((ورسوله)).

فالأنبياء تُحْفَظُ لهم حقوقهم، وتعرف ما لله، وما لنبي الله، فما تصرف حقَّ الله إلى نبي الله، هذا يعتبر من الشِّرك، إذا صرف ما لله لأنبياء الله، وسألهم ما لا يقدر عليه إلا الله، معتقدًا أنهم يجيبون، وأنهم شركاء لله، فهذا لا إشكال أنه مشرّك، وحينئذٍ غلا في نبيه حتى أوصله إلى مقام الألوهية.

وكذلك إذا أجحف، فتجد من ينتقص الأنبياء، سواء من مضى أو ممن تُعاشِرُ ممن هو معاصرٌ لنا، نسأل الله أن يُسلِّمنا من سوء العشرة، ففي عصرنا تجد من لا يعترف بالرِّسالة، يقول لك: (يا أخي، ما فيه نبيّ، هذه هرطقات)، وما يستبشع الموقِّق أن يذكره، فهذا كله من سفاهة العقل -نسأل الله السَّلامة والعافية- لهم عقول لا يعقلون بها، وقلوب لا يفقهون بها، اللهم إنَّا نعوذُ بك من الضلال.

فلما تقول: ((عبدُ الله ورسوله)) كنت في هذا المقام الوسط الذي يحبُّه الله ويرضاه، بل ويحبُّه نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وبُعث به نبيه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

((وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ)): وشهد أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-.

فَعِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَيْسَ بِإِلَهِ: {وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}، قالوا: (إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ). وقالوا: (إِنَّهُ هُوَ اللَّهُ)، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}. {وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}، ختمها بقوله: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ}؛ لَأَنَّ الشِّرْكَ ظُلْمٌ. {إِنَّهُ}: انْظُرْ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- يَقُولُ: {لَقَدْ كَفَرَ} (اللام وقد) التي تفيدُ التَّحْقِيقَ، {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}، تعالى اللَّهُ، مخلوقٌ يجعلونه إلهًا؟!

وإذا كان هذا المخلوق الذي وُلِدَ بعد أن كانت الدُّنْيَا، وكان قبله من كان، هو اللَّهُ، ماذا كان شأن الدُّنْيَا قبل؟ شيءٌ لو يتأملُ الإنسانُ به، ويرونه مذبحًا، حتى إِنَّ الولدَ يسألُ أباه: (كيف أعبدُ هذا وقد قتلوه؟! كيف أعبدُ هذا وقد صلبوه؟!)، بأقلِّ شيءٍ من العقلِ يمكنُ أن يدركه، لكنه ظلمٌ -وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ- وجورٌ، وصرفٌ ووضعٌ للشيء في غير موضعه، وضعٌ للعبادة في غير موضعها، العباداتُ لا تكونُ إلاَّ لِلَّهِ، وصُفِرَتْ لغيره.

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}، {اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}: هذا الركنُ الأوَّلُ من التَّوْحِيدِ الذي هو الإِثْبَاتُ. {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}، نفْيُ الشِّرْكِ لِلَّهِ.

وَيَبَيِّنُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ).

ثُمَّ بَيَّنَّ لَهُمْ هَذَا الَّذِي يَعْبُدُونَهُ: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ هُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}.

{أَنَّى يُؤْفَكُونَ}: أَيُّ يُصْرَفُونَ، الإِفْكَ يُطْلَقُ بِمَعْنَى الصَّرْفِ، {يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} أَيُّ صُرِفَ. وَيُطْلَقُ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ، {أَنفَكَا آلِهَةً}.

وَيُطْلَقُ بِمَعْنَى الْكَذْبِ، كُلُّهَا مِنْ مَعَانِي الإِفْكِ.

{أَنْتَ يُؤْفَكُونَ}: كيف يُصَرَّفُونَ عن هذا الحق؟ يُقَالُ للرجل الذي يترك العقلَ إلى الخبال، ويترك الهدى إلى الضلال، إنه مأفوكٌ، فهنا لما انصرفوا من الحق وهو التوحيد إلى الضلال وهو الشِّرك، وصفهم الله بهذه الصفة.

فعيسى -عليه السَّلام- ((عبدُ الله ورسوله))، يقيمه الله أمام الأولين والآخرين من أجل الخصومة والحكومة في حق الله ربِّ العالمين، يوم الدين، {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}، يوم الدين يوم المسألة والحساب، لن تجد مسألة يُسأل عنها العبدُ يوم الدين أعظم من مسألة التوحيد: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، الله أكبر! أقامه الله أمام الأولين والآخرين، {إِذْ قَالَ اللَّهُ}؛ لأنه يتكلَّم، وهذه صفة من صفاته، {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}: ما جعل الملائكة تسأله، تولى الله السؤال عن حقه بنفسه.

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}: الله أكبر! أمم الأولين والآخرين؛ لتعلم ما هو التوحيد؟ وما هو أمره؟ وما هو شأنه؟ ما حابى الله فيه الأنبياء حتى الأنبياء الذين يعبدون من دون الله يُسألون.

{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ}: سؤالٌ يُوجَّه إلى هذا النبي الكريم، {أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْنِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ}: ما هو من حقي أن أعبد، {مَا يَكُونُ لِي}: نفي، {مَا يَكُونُ}: مسلطٌ على الفعل الذي يدلُّ على الدوام والاستمرار، أليس من حقي لا فيما مضى ولا فيما حضر، ولن يكون من حقي أبداً.

{مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}: خصومةٌ تُقام من أجل التوحيد، الشِّرك ليس بالأمر الهين، الشِّرك ما حابى الله فيه صفوته من خلقه، كلُّ ما يُعبد من دون الله من حجرٍ وشجرٍ وبقرٍ وقبورٍ وأولياءٍ وغيرهم، كلُّ من صُرفَ له حقُّ الله، وجُعِلَ مع الله نداً، يُحشَرُ ويُسأل؛ حتى تعلمَ عظم هذا الأمر وخطورته، ليس بالأمر الهين، ولذلك انتصب له الأنبياء، وانتصب له العلماء، وانتصب له الدُّعاة المخلصون، ليس هناك شيءٌ أعظم من حقِّ الله -جلَّ جلاله-.

{أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي}: هنا بين النبي -صلى الله عليه وسلم- لأُمَّته حتى تعلم أن الرُّسل عبادٌ وبشَرٌ، ما يُصَرَّفُ لهم حقُّ الله -عزَّ وجلَّ-، كلما وجد الإنسانُ قبراً يُقال: (هذا للنبيِّ فلان) عكف عنده، ويصيخ ويُسأل ما لا يُسأل إلا من الله، ويرجوه ويخافه كخوفه ورجائه من الله، بل أشدَّ -والعيادُ

بِاللَّهِ-، هذا أَمْرٌ عَظِيمٌ، أَمْرٌ خَطِيرٌ، وَاللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- تَوَلَّى فِي كِتَابِهِ بَيَانَ عَظَمِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، وَلَمْ يَحَاجِ فِيهِ صَفَوَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمْ الرُّسُلُ.

((عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)): فَالَنَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُعَلِّمُ أُمَّتَهُ؛ حَتَّى لَا تَضَلَّ وَلَا تَزِيغَ، وَلَا تَتَّبِعَ سَنَنَ مَنْ كَانَ مِنْ قَبْلِ مَنْ ضَلُّوا وَأَضَلُّوا وَضَلُّوا عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ.

أَعْظَمُ الشَّقَاءِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ عَلَى الصَّفَاءِ وَعَلَى حَقِّ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، ثُمَّ يَصْرِفُهُ إِلَى غَيْرِهِ.

((وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ)): عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ، اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- إِذَا أَرَادَ أَمْرًا: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، فَعِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- كَلِمَةُ اللَّهِ، رُوحٌ مِنَ اللَّهِ، كَلِمَتُهُ؛ لِأَنَّ جَبْرِيلَ نَفَخَ فِي دَرْعِ مَرْيَمَ فَقَالَ اللَّهُ: (كُنْ)، فَخُلِقَ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِأَمْرِ اللَّهِ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، وَلَيْسَ خَالِقًا مَعَ اللَّهِ، قَالَ: (كُنْ) فَكَانَ، وَلِذَلِكَ هُوَ رُوحٌ، وَمِمَّنْ أُخِذَ عَلَيْهِ الْعَهْدُ حِينَمَا ذَرَأَ اللَّهُ مِنْ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَهُوَ رُوحٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ تِلْكَ الْأَرْوَاحِ الَّتِي أُخِذَ عَلَيْهَا الْعَهْدُ، وَلِذَلِكَ الْإِضَافَةُ فِي قَوْلِهِ: ((كَلِمَتُهُ، وَرُوحُهُ))، الْإِضَافَةُ إِذَا كَانَتْ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-:

إِنَّمَا أَنْ تَكُونَ لِمَعْنَى غَيْرِ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ، مِثْلَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَتَقُولُ: (عِلْمُ اللَّهِ، وَقُدْرَةُ اللَّهِ)، فَإِذَا جَاءَتْ عَلَى هَذَا النِّحْوِ فَهِيَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، إِذَا أُضِيفَتْ لِلَّهِ.

وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ جِسْمًا، فَإِنَّمَا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ إِذَا أُضِيفَتْ لِلَّهِ تَأْتِي عَلَى قَسَمَيْنِ:

القسم الأول: أَنْ يَكُونَ مِضَافًا لِلَّهِ لَخَصِيصَةٍ اخْتُصَّ بِهَا، لَخَصِيصَةٍ: مَزِيَّةٍ وَفَضْلٍ، تَقُولُ (كَعْبَةُ اللَّهِ، وَبَيْتُ اللَّهِ)، فَهَذِهِ يَسْمُونَهَا (إِضَافَةُ التَّشْرِيفِ وَالتَّكْرِيمِ)، وَمِنْهَا: قَوْلُكَ (عِيسَى رُوحُ اللَّهِ، عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ، الْخَلِيلُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللَّهِ)، هَذِهِ إِضَافَةُ التَّشْرِيفِ؛ لِأَنَّهَا خَصِيصَةٌ اخْتَصَّهَ اللَّهُ بِهَا وَمَزِيَّةٌ وَفَضْلٌ، تَقُولُ (كَعْبَةُ اللَّهِ، وَبَيْتُ اللَّهِ)، هَذِهِ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ.

وَأَمَّا إِذَا لَمْ تَكُنْ عَلَى هَذَا النِّحْوِ: فَحِينَئِذٍ تَكُونُ كَسَائِرِ الْخَلْقِ، تَقُولُ: (أَرْضُ اللَّهِ، سَمَاءُ اللَّهِ)، (أَرْضُ اللَّهِ): هَذِهِ أَيْ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَهِيَ إِضَافَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، لَا مَزِيَّةَ لَهُ وَلَا فَضْلَ، لَكِنْ إِذَا كَانَتْ لِمَعْنَى خَاصٍّ، تَكُونُ مَزِيَّةً وَفَضْلًا، كَقَوْلِكَ: (عِيسَى رُوحُ اللَّهِ، عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ)، فَهَذِهِ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ وَتَكْرِيمٍ.

وَقَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ))، ((وَكََلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ)) كَمَا بَيَّنَّ اللَّهُ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، وَلِذَلِكَ لَمَّا هَاجَرَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ- ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَجَاءَ

المشركون إلى القساوسة، وأوشوا وأغروا به؛ يريدون أن يغروا به النجاشي، فقالوا: (إن هذا يزعم ويقول في عيسى ما لا تقولون)، فلما جاء القساوسة إلى النجاشي، ودعا جعفرًا فسأله، فتلا عليه سورة مريم، فنخر القساوسة وهاجوا وماجوا واضطربوا، فقال النجاشي: ((إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة))، أي أنه قول حق، ((وإن نخزئكم))، نخروا مرة، قال: ((وإن نخزئكم)) أي أنه هو الحق، أصحمة -رحمة الله-، ولذلك صلى عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- صلاة الغائب؛ لأنه كان له أمر عظيم مع أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فبين أنه ما زاد عيسى على هذا الذي بينه الله عنه في كتابه في سورة مريم، فهو عبد لله، ورسول لله، وروح من الله، وكلمة الله.

((والجنة حق)) وشهد أن الجنة، "جن الشيء" إذا استتر، والجنة: هي البستان، وتسمى بذلك؛ لأنها تستر من بداخلها، ولذلك تظله بظلالها فلا يرى، فيقال لها: (جنة).

ووصف الله دار السعادة لأوليائه المتقين، جعلنا الله وإياكم منهم، بأنها جنة، وأنها جنات، وأنها جنات: {جَنَّاتِ عَدْنٍ}؛ وهذا لأن أكثر ما فيها الزرع، ولذلك غراسها الذكر، كما جاء في الحديث الصحيح عن إبراهيم لما قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- ((اقرأ أمتك السلام)).

والشاهد من هذا: أن الجنة دار الله التي أعدها للسعداء، وهي الآن موجودة؛ لأن النصوص دلت على وجودها كما في أحاديث الإسراء.

وكذلك الرؤى التي رآها -عليه الصلاة والسلام-، وهي حق.

وكذلك ما ثبت في الأحاديث الصحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كقوله: ((رايت رجلاً يتقلب في الجنة في غصن شوك))، ونحو ذلك من الأحاديث.

الجنة موجودة، ودلت الأدلة على وصفها، فوصف الله ما فيها من النعيم، ومع هذا كله مع كل ما وصف الله ما فيها من النعيم، فقد ثبت الحديث الصحيح القدسي: ((أن الله تعالى يقول: أعددت لعبادي ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))، مع هذا الوصف الذي وصف في كتابه وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسمعناه وآمنا به وصدقناه، فقد أعد الله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم.

وأما النار: فهي دار الأشقياء، وهي الدار التي أعدها الله عقوبةً للمشركين ولعصاة الموحدين إذا أراد الله أن يعذبهم وشاء الله أن يعذبهم؛ لأن أهل التوحيد كما سيأتي -إن شاء الله- أيضًا تفصيله:

منهم مَنْ يحافظُ على طاعته لربه واجتنابه للمعاصي، فيلقى الله يوم يلقاه بغير ذنبٍ، يحرصُ على أنه ما يرتكبُ كبائرَ الذُّنوبِ، وإن حصل منه الذَّنْبُ فهو في اليسيرُ، فهؤلاء بفضل الله في جنته ورحمته. والنوعُ الثاني هم عصاةُ الموحِّدين، يكونون قد ارتكبوا كبائرَ الذُّنوبِ، أو شيئاً من كبائر الذنوبِ، أو أسرفوا في الصغائر، فعُظِّمَتْ إساءةُهم، فهم تحت مشيئة الله، منهم مَنْ يعفو الله عنه ويدخله الجنة، ومنهم مَنْ يعدِّبه الله، ومن أدخل الله الجنة فقد دخلها بفضل الله، سواء من الأولين أو الآخرين:

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نَعَمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

-سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-

اللهم إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ.

فعصاةُ الموحِّدين قد يُغْفَرُ لهم ويدخلون، ولذلك يدني الله العبدَ يوم القيامة ويقرِّره بذنوبه، فيقرُّ بها ((فيقول: عبي، سترتها عليك في الدنيا، وها أنا أسترها عليك اليوم))، اللهم استرنا بسترِكَ، وتولنا برحمتك، وأنت أرحمُ الرَّاحِمِينَ.

وأما المذنبون فإذا شاء الله أن يُعَذِّبُوا يدخلون في النَّارِ، ويمكثون ما شاء الله، منهم مَنْ يخرجُ بالشفاعة إذا أذن الله لنبيه أن يشفعَ، وله شفاعَةٌ في أقوامٍ استوجبوا دخولَ النَّارِ ألا يدخلوها، وهي من أقسام شفاعته، وله شفاعَةٌ بعد أن يدخل النَّاسُ الجنة والنارَ، يشفعُ لأهل التوحيد، وكذلك يشفعُ المؤمنون بعضهم لبعضٍ.

((والجنة حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)): تقدَّم أنَّ النَّارَ دارُ الأَشْقِيَاءِ -أَعَاذَنَا اللهُ وإياكم منها-، أعدَّها الله لأهل الشرك، ويُعَذِّبُ بها العصاةَ من المؤمنين الموحِّدين حتى يخرجوا من النَّارِ وقد امْتَحِشُّوا، ويُلقون في نهر الحياة كما ثبتت بذلك الصِّحاح الأخبار عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وهذه النَّارُ موجودةٌ الآن، وثبتت النَّصوصُ في كتاب الله وسنة النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بذلك، كما قال تعالى عن آل فرعون: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، فأخبر أنهم يُعْرَضُونَ على النار.

وكان ابنُ عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وَأَرْضَاهُمَا- إذا غابت الشمسُ قال: ((أقبل الليلُ، وأدبر النهارُ، وعُرِضَ آلُ فرعون على النَّارِ))، تصديقاً بالكتاب، وإيماناً بما جاء به رسولنا -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- في آية غافر أنهم يُعْرَضُونَ على النار.

وثبتت أيضاً الأحاديث حتى إنَّ النبيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخبر ((أَنَّ شِدَّةَ الْحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ)) -صَلَّواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

والأحاديثُ صحيحةٌ التي تدلُّ على أَنَّ النَّارَ موجودةٌ، ويؤمنُ المؤمنُ بذلك ويعتقده؛ لثبوت النص به، كيف؟ طريقة تفصيله؟ هذا لا يبحث فيه، دائماً الإسلام هو التسليم، يقولون لك: (أنت ما تفكر، أنت ما تُعَمِّلُ عقلك، أنت، أنت) ما عليك، عليك بالحق والهدى، قُلْ لهم: لو كان كما قال أبو بكرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- لما قالوا له: ((زَعَمَ صَاحِبُكَ أَنَّهُ قَدْ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، قَالَ: هُوَ يَقُولُ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: هُوَ صَادِقٌ))، تسليم، ما فيه، (قال الله، قال رسوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-)، يستهزئ من يستهزئ، يقبل من يقبل، ما علينا، نحن أبداً علينا أن نؤمن بما جاءت به النصوص، ولا تنهزم ولا تضعف ولا تخاف أبداً، جاء النص به، تقنعه تقول له: (نعم أؤمن بذلك أكثر من إيماني أني أراك)، تحقِّره كما يحقُّ الحق، تحقِّره بباطله إذا ماري وجادل، يعني أي كلما تباعد الأمر عن زمان النبوة ضعف الإيمان وضعف التسليم، ولكن هناك غرباء يُصِلِحون ما أُفْسِدَ في عقائد الناس.

التَّسْلِيمُ هو أساسُ الدِّينِ والمِلَّةِ: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا} نكرة، أي حرج كان، ما نتحرَّج أبداً، {ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، ليس {وَيُسَلِّمُوا}، بل {تَسْلِيمًا}: تأكيد بالمصدر، فجعلنا الله وإياكم من أهل الثبات.

قال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ))، ((أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ))، فأهل التوحيد هم أهل الجنة، سواءً دخلوها أول مع الداخلين، أو دخلوها بعد ذلك، والكل بفضل الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

فمن قال: (لا إله إلا الله) مآله إلى الجنة على التفصيل الذي ذكرناه، فإذا كان ممن وُحِّدَ والتزم بطاعة الله، فأمر بأمر الله، وانتهى عما نهى الله عنه، هذه هي التقوى، فصار من المتقين، وعندها يكون من أهل الجنة: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَاتِقًا وَأَعْنَابًا}، فهم أهل الجنة الذين اتقوا، {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا}، {الَّذِينَ اتَّقَوْا}، فأهل التقوى هؤلاء يدخلونها أول مع الداخلين، ومن عصى فعلى التفصيل الذي ذكرناه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّه وآله وصحبه أجمعين.